زرادشت

لا يدين اليوم بالديانة الزرادشتية إلا طائفة المجوس بالهند وجماعة قليلة العدد من أهل فارس ، ومع ذلك فإنها تستأهل الدراسة لما كان لها من أثر بالغ فى الديانات السماوية التى جاءت بعدها . فزرادشت صاحب هذه الديانة هو أول من قال ببعض العقائد الجديدة التى تضمنتها الأديان السماوية فيما بعد مثل القول بالجنة والنار والبعث ويوم الحساب ، وأن الشيطان هو أصل الشر فى العالم . ولقد كان لهذه الفكرة الأخيرة شأن هام فى تطور الأديان . وإنه ليصعب علينا الآن أن نتخيل الوقت الذى كان الإنسان فيه لا يدرك شيئاً عن هذه الفكرة ، فكانت تنتابه الحيرة عندما ينظر إلى هذه الشرور والآلام التى تحيط به ولا يدرى لها تعليلا . فهو لا يستطيع ردها إلى فعل الإنسان ذاته لأنها فوق طاقته ، وليست هى من صنع الآلهة لأن الآلهة خير محض فلا يصدر عنها إلا الخير ، لذلك كان لهذا الرأى أو الكشف الجديد الذى جاء به زرادشت أثره البالغ فى إخراج الإنسان من حيرته التى كان فيها ، إذ جعله

يدرك كنه الشر وطبيعته فأخذ يسعى للقضاء عليه أو الابتعاد عنه قدر الطاقة ، ثم هو فى الوقت نفسه يصب لعنته على الشيطان إذا ما أصابه الضر فترتاح نفسه ويجد لحنقه وغيظه منصرفاً .

وإنه على الرغم من الخرافات التى حيكت حول فكرة الشيطان ، فما لا شك فيه أنه بقدر حنق الإنسان وسخطه على الشيطان مصدر الشر والألم يكون حبه وإجلاله لله مصدر الخير والبركات ، فالشىء كما يقولون لا تعرف قيمته إلا بضده .

والخطر الوحيد الذى قد ينجم عن هذه العقيدة هو أن بعض الناس قد يخشون الشيطان أكثر مما يجب فيعبدونه زلفى له كما يعبدون الله سبحانه وتعالى .

على أن زرادشت لم يعبد الشيطان (أهرمن) قط ، بل كان يمقته ويعمل على محاربته . والأمر الذى أنقذ زرادشت من الوقوع فى الثنائية — الاعتقاد فى إلهين : إله الحق والنور وإله الشر والظلمة — وجعله من القائلين بالتوحيد الداعين إليه ، هو اعتقاده الجازم فى أن أهرمن إله الشر سوف تحل به الهزيمة هو وأعوانه من خلائق الشر آخر الأمر على أيدى أهرمزدا الإله الحق هو وأعوانه من ملائكة النور والخير .

ولقد كان لاعتقاد زرادشت الجازم فى انتصار الحق

والخير آخر الأمر على الشر أثره البالغ فى التفكير العالمى ، إذ فتح أبواب الأمل أمام ملايين البشر المؤمنين الصالحين الذين يبتهلون كل صباح وكل مساء أن يجنبهم الله شر الوقوع فى حبائل الشيطان الرجيم ، طالبين العفو والمغفرة من زلات وآثام وقعوا فيها وانساقوا إليها بإغراء هذا الشيطان الماكر اللعين .

مولد زرادشت

ليس من السهل استخلاص حياة زرادشت الصحيحة من وسط تلك الأساطير العجيبة التى حيكت حول حياته ، بل إن بعض العلماء قد شك أصلا فى وجود شخصية تاريخية تعرف باسم زرادشت . غير أن الدراسات العميقة لكتب الأبستاق (Avesta) التى تتضمن حياة زرادشت وعقائده قد أثبتت وجود زرادشت فى وقت من الأوقات .

وينتسب زرادشت إلى ذلك الجنس البشرى المعروف باسم الجنس الهندى الأوربى . ولقد انقسم هذا الجنس منذ فجر التاريخ إلى قسمين عظيمين : انتشر أحدهما غرباً واستقر فى أنحاء أوربا المختلفة ، أما القسم الآخر وهو الجنس الآرى فقد انقسم بدوره إلى شعبتين استقرت إحداهما فيما يعرف اليوم بالهند، واستقرت الأخرى فيما يسمى بفارس، وهى

ما تعرف اليوم باسم إيران .

ولا تزال أصول كثير من الكلمات المستعملة فى البلاد التى انتشر فيها الجنس الهندى الأوربى واحدة مثل كلمات أب وأم وأخ ، فهى واحدة فى اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية وكذلك فى اللغة الفارسية القديمة واللغة السنسكريتية الهندية الشرقية القديمة . وتتشابه كذلك إلى حد كبير كثير من عادات وطباع الشعوب التى هى من أرومة الجنس الهندى الأوربى .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق المكان الذى ولد فيه زرادشت ، غير أن القول الراجح أنه ولد فى الجزء الغربى من إيران الذى يعرف باسم آزربيجان ، وأنه قام بدعوته الدينية فى منطقة بلخ ، وقيل أيضاً إن أسرة أمه جاءت من إقليم الرى .

ويحيط الشك أيضاً بتاريخ مولده ، فكتّاب اليونان واللاتين يرجعون بتاريخ مولده إلى أقدم الأزمنة ، فنجد مثلا أن بلينوس يؤكد معتمداً فى ذلك على أرسطو ، أن زرادشت كان على قيد الوجود قبل وفاة أفلاطون بستة آلاف سنة . بينما يذكر بلوتارخ أن زرادشت كان يعيش قبل حرب تروادة بخمسة آلاف عام . ويذكر البعض أن زرادشت كان موجوداً فى عهد سميراميس ملكة نينوى وملكها نينوس . ويرجع

أحد الكتّاب المحدثين عهد زرادشت إلى عشرين ألف عام قبل الميلاد بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول إنه فى ذلك العهد السحيق فى القدم كان زرادشت صاحب الديانة الزرادشتية هو فى الحقيقة سابع من تسمى بهذا الاسم . ويذهب بعض العلماء من ناحية أخرى إلى أن زرادشت ولد عام ألف قبل الميلاد وذلك استناداً على نص ورد فى إحدى الكتابات الأشورية .

على أن الروايات الزرادشتية نفسها تؤيدها فى ذلك المصادر الغربية تجعل بداية تعاليم زرادشت قبل وفاة الإسكندر المقدونى بـ ٢٧٢ سنة وهذا يحدد مولده بعام ٦٦٠ قبل الميلاد . وكانت وفاته عام ٥٨٣ قبل الميلاد .

وعلى هذا يكون اليهود قد أسروا فى بابل إبان حياة زرادشت وعادوا بعد وفاته بقليل إلى بيت المقدس ، أعادهم إليها الملك كورش (cyrus) العظيم .

وجاء فى الأساطير البهلوية أن أمه رأت فى منامها بعد خمسة أشهر من حمله أن سحابة سوداء قد أحاطت ببيتها ، وأن مخلوقات بشعة قد هبطت عليها من هذه السحابة وانتزعت الطفل من رحم أمه وهمت بالقضاء عليه ، فأخذت الأم فى البكاء والعويل خوفاً وفزعاً ، غير أن زرادشت هدأ من روعها

قائلا أن لا خوف ولا بأس عليه لأن الله القدير قد اصطفاه وصادقه . وما لبث أن هبط من السماء جبل يشع منه النور مزق هذه السحابة السوداء إرباً إربا فاختفت هذه الكائنات البشعة ثم انبثق من هذا الجبل طيف شاب يشعّ منه النور يحمل فى إحدى يديه غصناً يشع منه النور وفى اليد الأخرى كتاباً من عند الله وكان هذا الطيف يمثل عظمة الله وجلاله . وقد أعاد هذا الطيف الطفل إلى أمه وسكن من روعها قائلا إن الضر سوف لا يمس هذا الطفل لأن الله ذاته يحميه ويرعاه ، ثم أضاف قائلا وهو يهم بالانصراف : إن هذا الطفل الميمون الطالع سوف يصبح نبى أهرمزدا .

وعندما خرج زرادشت إلى نور الحياة لم يبك مثل سائر الأطفال وإنما ضحك بصوت عال اهتزت له أركان البيت . ويقال إنه ظهرت عند ولادته عدة خوارق منها أن الأرواح الشريرة قد هربت إلى العالم السفلى عندما جاءها نبأ ولادته ، كما تذكر المصادر البهلوية أن نوراً إلهياً غمر بيت أبيه بورشاسب عندما ولد له ابنه زرادشت .

وتذهب الروايات أن ملكاً عاتياً من ملوك ذلك الزمن يدعى دُرَنسُرام بلغته أنباء هذا الطفل العجيب الذى ضحك عند ولادته ، وأنباء الخوارق التى صاحبت مولده فعقد العزم

على قتله حتى لا يكون منافساً له فى سلطانه وجبروته فأسرع إلى بيت بورشاسب وانتزع الطفل من مهده واستل خنجره وهم بذبحه ولكن يد الملك شلّت ويبست إذ أشلها الإله أهرمزدا . فأمر هذا الملك بأن يلقى الطفل على كومة من الحطب المتأجج ، ولكن النار كانت برداً وسلاماً عليه إذ حفظه أهرمزدا من الهلاك . ثم ألقى به بعد ذلك فى ممر ضيق للثيران لكى تطأه بأقدامها ، غير أن بقرة أحاطت الطفل بقوائمها وأبعدت عنه بقرونها الثيران والبقر . وقد حاول الملك إهلاكه بطرق أخرى ولكن الإله أهرمزدا حماه ورعاه .

الاسم زرادشت

يعرف زرادشت عادة فى المصادر الإفرنجية باسم « زورواستر » (Zoroaster) . ولم يكن هذا هو الاسم الذى أطلق على ذلك الطفل الذى ولد فى أسرة « سبتما » أى الأسرة البيضاء عام ٦٦٠ قبل الميلاد لأن هذا الاسم هو الصيغة اليونانية للاسم « زراثسترا » (Zarathustra) الوارد فى كتاب الأبستاق . ومعنى كلمة « زراث » (Zarath) يعذب . أما كلمة « أسترا » (Ustra) فمعناها جمل وعلى ذلك يكون معنى هذا الاسم « معذب الجمل » . وقد جرت العادة فى

القبائل البدائية أن ينسب الطفل إلى أول فعل ملحوظ من فعاله ، وهذا يدعو إلى القول بأن تعذيب الجمال كان أول فعل عرف به هذا الحكيم الآرى فى حداثته .

وذكر اسمه فى الكتابات الفارسية المتأخرة ، أى من العهد البهلوى بصيغة زراتشت (Zaratusht) وهى الصيغة التى أخذها العرب ونطقوا بها مخففة فقالوا زرادشت ، أى بالدال بدلا من التاء .

ومهما يكن من الأمر فإن اسم زرادشت قد ورد فى نحو عشرين صيغة مختلفة الرسم والهجاء .

كان أبوه يدعى بورشاسب وأمه دغدوفا . وترجع الروايات نسبه إلى كيومرت ، وهو آدم فى الأساطير الفارسية ، وهو جده الخامس والأربعون .

ويقال إن زرادشت هو أوسط خمسة أبناء وأنه تزوج من ثلاث نساء ظللن على قيد الحياة بعد وفاته . ولا ندرى أكان زرادشت قد تزوج هؤلاء النسوة الثلاث فى وقت واحد أم أنه تزوج الواحدة منهن بعد طلاق الأخرى . وقد رزق من زوجته الأولى ابنا وثلاث بنات ، ومن الثانية ، وكانت أرملة ، ولديين . أما زوجته الثالثة ، وكانت أحب نسائه إلى قلبه فلم تعقب ولداً .

زرادشت فى حداثته

ما إن بلغ زرادشت السابعة من عمره حتى عهد به إلى أحد الحكماء ليقوم على تعليمه وتهذيبه . واتفقت الأساطير على أنه قد لاحت عليه وهو فى هذه السن المبكرة دلائل النجابة والذكاء المفرط والثورة على التقاليد وعلى الأوضاع السائدة المقررة فى عهده. وتذكر الروايات أنه مرض وهو فى السابعة من عمره فاستدعى أبوه السحرة ليقوموا على تطبيبه، فأعدوا الدواء وطلبوا إليه أن يشربه ليستريح من آلامه ويشفى من مرضه ؛ غير أن زرادشت أدرك ببصيرته أنهم أعدوا له سما ناقعاً كى يزيحوا من طريقهم هذا المنافس الخطر فكان أن أراقه على الأرض ولامهم على غدرهم به .

وكان للسحرة فى تلك الأيام مكانة عظيمة ونفوذ كبير ، وكان بورشاسب واقعاً تحت سحرهم كغيره من الناس . ففى يوم من الأيام أولم وليمة كبيرة لنفر من هؤلاء السحرة ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام عرضوا أمامه وأمام ولده زرادشت بعض أعاجيبهم وألاعيبهم ، فأخذ بورشاسب يمتدح مهارتهم ومقدرتهم غير أن زرادشت أهاب بأبيه أن يبتعد عن هذا الطريق الخاطىء الذى يسلكه السحرة والمشعوذون ، وأن يتجه

بقلبه وعقله إلى الله إذا أراد العلم والمعرفة. ولقد غضب بورشاسب من حديث ولده وقام بينهما جدل عنيف انتهى بأن خرج السحرة من البيت وهم فى أشد الخجل والارتباك .

ومهما يكن من الأمر فإن زرادشت قد بلغ مبلغ الرجال وهو لا يزال فى الخامسة عشرة من عمره ، نستدل على ذلك من أن والده قد عهد إليه بنصيب من ممتلكاته وهو فى هذه السن ليديرها بما عرف عنه من بصيرة وحسن إدراك . ونحن لا نعرف إلا القليل عن زرادشت فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين من عمره ؛ وتذكر المصادر الخاصة بهذه الفترة من حياته أنه كان كثير التحدث مع علماء البلاد وحكمائها ، كما كان يتردد على الأماكن التى تلتقى فيها الطرق التجارية الهامة المؤدية إلى مختلف البلاد ، ليتيسر له التحدث إلى أكبر عدد من أهل العلم والفلسفة من مختلف البقاع ، وبذلك اجتمعت له معلومات كثيرة وتجارب عدة استقاها من الرحالة المجربين ومن التجار والحجاج .

وقد عقد زرادشت العزم على أن يكسب العلم والمعرفة عن طريق التأمل والتفكير ، فأخذ يفكر تفكيراً عميقاً شاملا فى أحوال هذا العالم . ورأى بثاقب بصره أن الحياة ليست نسيجاً لحمته البهجة وسداه السعادة والسرور ، إنما هى مزيج من الظلم والاضطهاد والفقر والحرمان والطمع والجشع والغش

والخداع والحسد والغيرة والخبث والبغض وغير ذلك من الرذائل التى تركت فى نفسه أثراً عميقاً .

ومن الطبيعى أن يخجل زرادشت الشاب من تلك الوصمة التى لحقته إبان طفولته وهى تلقيبه بلقب « معذب الجمال » ، لذلك حاول جهده أن يزيل عنه تلك الشهرة السيئة التى تدل على قسوته على الحيوان ، فأخذ يقوم بفعال وهو فى شبابه تدل على عكس ما أثر عنه فى طفولته . وهناك روايات وقصص كثيرة تسرد علينا هذه الفعال ، منها أنه دأب على إطعام الفقراء والمساكين فى زمن حلّت فيه المجاعة بالناس . ويؤثر عنه أنه صادف فى يوم من الأيام كلبة وصغارها وقد أضناها الجوع فأسرع إلى بيته وأحضر الخبز ليقدمه لهذه الكلبة وصغارها ، ولكنه ما إن عاد إليها حتى وجدها قد نفقت ، فأثر ذلك فى نفسه أثراً عميقاً انعكس فى قانونه الذى سنه للناس فيما بعد إذ فرض فيه عقوبات شديدة على الشخص الذى يسىء معاملة الحيوان أو يمنع عنه الغذاء .

وتدلنا بعض الروايات على أن زرادشت قد أخذ وهو فى شبابه يتحلل من ربقة تلك العادات والتقاليد التى كانت شائعة فى عهده ، فنجده مثلا يصر على أن يرى وجه المرأة التى سوف يتزوجها ويتحدث إليها قبل أن يعقد عليها وكان ذلك

من محظورات ذلك العهد .

وتؤكد الأساطير الفارسية أن زرادشت قضى فترة طويلة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره فى التأمل والتفكير . ويذهب أتباعه إلى أنه قضى فى الصحراء سنوات كثيرة يغتذى من قطعة واحدة من الجبن تتجدد من تلقاء نفسها . وهم يذكرون أن النور كان يغمر الجبل الذى لجأ زرادشت إلى أحد كهوفه . وإذا صحت تلك الرواية فليس من الغريب أن يكون ذلك بسبب ثورة بركان قريب أثار الجبل بلهبه وحممه ، أو أن يكون هذا النور صادراً عن عاصفة كهربائية أحالت الجبل وما حوله إلى قطعة من النور .

وما إن بلغ زرادشت الثلاثين من عمره حتى اعتزل الناس وآثر الوحدة ، والعزلة هى محراب الطبيعة الجليل حيث تستطيع النفوس أن يناجى بعضها بعضاً وسط ذلك الصمت المطبق والسكون المخيم على الكون . لجأ زرادشت إلى قنن جبال الهضبة الإيرانية بعيداً عن زحمة الحياة وجلبتها حيث لا صوت إنسان يقطع عليه تيار تفكيره أو يصرفه عن تأملاته . وهناك اتخذ من المياه والطير والحيوان والشمس والقمر والنجوم والسيارات أساتذة له يتلقى عنها أسرار الحياة . فأخذ يتأمل فى جوهر هذا الخالق المبدع لكل هذه الكائنات والمخلوقات ، وفى متناقضات

الحياة، وفى مصير الإنسان بعد الموت. وقد استطاع وهو فى هذا المحراب الطبيعى الجليل الذى هو من صنع الواحد القدير أن يرى بروحه أشياء لم ترها عيناه من قبل. هنا فى هذه العزلة التامة استطاع زرادشت بعقله المبدع أن يدرك كنه الله، وقد أطلق عليه اسم أهرمزدا أى الإله الحكيم.

وذهب الكتّاب اليونانيّون المتأخرون إلى أن زرادشت كان لديه فى كهفه بالجبل مثال مصغر يمثل النظام الشمسى. ولا ريب فى أن طبيعة الصحراء الصامتة بسمائها الصافية قد جعلت زرادشت يتجه ببصره إلى كبد السماء يراقب نجومها فى الليالى الصافية، ويتتبع حركاتها، فكان بذلك أول مجوسيّ الشرق الذين يعدون بحق رواد علم الفلك الحديث.

الدعوة إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى

لقد تم التمهيد للنبوة المنتظرة إذ بلغ زرادشت إبان عزلته فى الجبال شأواً كبيراً فى الحكمة والصلاح والتقوى وشعر فى قرارة نفسه أنه رسول من عند أهرمزدا ــ الله عند زرادشت ــ وأنه على أتم استعداد لأن يحمل هذه الرسالة وأن يبلغها لبنى البشر. لقد انتهت عند ذلك الحد مرحلة من مراحل حياته وأصبح الآن على تمام الأهبة لأن يخرج من عزلته وأن ينخرط

مرة أخرى فى ركب الحياة وأن يذوق حلوها ومرها . لقد كانت لديه رسالة جديدة وأمل جديد وطريقة جديدة يجدد بها هذا العالم الذى ران عليه اليأس والقنوط وفقد الناس فيه الأمل والرجاء ، فكان هو حامل رسالة الأمل إلى بنى الإنسان الساعى إلى تخليصهم مما هم فيه من شرور ومفاسد وضلالات ، العامل على إنشاء نظام اجتماعى وخلقى جديد . وقد كانت هذه المهمة صعبة محفوفة بالمخاطر ، ولكن زرادشت عقد العزم على تحقيق هذه الرسالة . وكان يرى أن رسالته موجهة إلى البشر أجمعين ، غير أن هذه الأمنية التى كان يحلم بتحقيقها لم تتحقق أبداً لا فى عهده ولا فى الأعصر التى أعقبته . فإن الزرادشتية — وإن كانت تدعو إلى التوحيد وإلى طريق الحق والاستقامة — لم تكن تحمل فى طياتها دلائل على أنها سوف تضبح ديناً عالمياً ، لذلك فهى لم تنتشر إلا فى منطقة محدودة أى أنها كانت ديناً إقليمياً ، وقد يكون من العجب أن الزرادشتية قد بقيت على وجه الأرض حتى اليوم وإن لم يزد أتباعها على ١٢٥ ألف نسمة .

اتجه زرادشت أول ما اتجه بعد عزلته إلى مسقط رأسه وقد عرفه أهله وبنو عشيرته بعد هذه الغيبة الطويلة وإن كانت ملامحه قد تغيرت وتقدمت به السن واستطالت قامته ، غير

أن الشيء الذى بهرهم هو ذلك النور الساطع الذى كان يشع من طلعته، وكأن نفسه الطاهرة النقية قد فاض نورها فانعكس على وجهه .

أخذ زرادشت يتنقل بين الناس ويتحدث إليهم فى بساطة وإخلاص وثقة بالنفس وعدم تكلف، وذلك قد أكسبه احترام كل من قابله وتحدث إليه . وكان احترام الناس له مشوباً بالإعجاب والتقدير لأنه أخذ يتحدث إليهم بأحاديث وآراء لم يسمعوا بها من قبل، كما أخذ يبصّرهم بأشياء لم تكن معروفة لديهم .

ذكر زرادشت أنه جاءهم من عند أهرمزدا الإله الأعظم الذى هو فوق كل الآلهة التى عرفوها من قبل . وأن هذا الإله قد اختاره ليبلّغ رسالته إليهم ويدعوهم إلى دين أسمى من الدين الذى يعتنقونه . وقال لهم إن الكهنة ورجال الدين يهتمون أشد الاهتمام بالطقوس والشعائر الدينية والمظاهر الخارجية للدين أكثر من اهتمامهم بلب الدين وجوهره، وأن الآلهة التى يعبدونها مشغوفة بالقرابين التى تقدم إليها من الحيوان والطير . أما الدين الجديد الذى يدعو إليه فلا يقوم على شيء من هذا، إنما أساسه القلب والوجدان . إن القلب الكسير والنفس التائبة النادمة هى أحسن قربان يقدمه المؤمن إلى

خالقه ، وإن دموع الندم المنسكبة من قلب تائب نادم هى القربان المفضّل عند الله . أما موضوع هذا الدين الجديد وهدفه فهو السلوك المستقيم ، وعباداته قائمة على العدل والورع والاستقامة ، وهذه صفات باطنة يتصف بها القلب والضمير ، أما المظاهر الخارجية لهذا الدين فهى النية الطيبة والكلام الطيب والأعمال الطيبة .

كانت هذه الدعوة غريبة على أسماع هؤلاء الذين تجمعوا حول هذا النبى ، وقد تركت فى نفوس بعضهم أثراً عميقاً لبساطتها وشعروا بميل نحو دعوته . وكان بين هؤلاء المستمعين نفر اجتمعوا حول زرادشت لينقلوا أقواله إلى أتباعهم من رجال الدين الذين أخذوا يتوجسون شراً من هذه الدعوة الجديدة فراقبوا زرادشت عن كثب وانتظروا ما عسى أن تؤدى إليه هذه الدعوة الجديدة ، غير أن انتظارهم لم يطل فإن دلائل الاستنكار وهمسات الاستهجان ودمدمة السخط والحنق قد ظهرت فى أنحاء مختلفة من إيران مؤذنة بهبوب العاصفة .

انزعج كهنة الدين القديم أيما انزعاج وحاولوا أن يحولوا دون زرادشت وجمهور المستمعين له بحجة أن هذه الآراء مما يهدد أمن الناس وطمأنينتهم . وكثيراً ما اجتمعوا وإياه وجادلوه فى المسائل التى يثيرها فكان يتفوق عليهم فى جدله ونقاشه ،

وأفضى هذا إلى الحط من أقدارهم بين الناس ، فامتنعوا عن الاجتماع به وأخذوا يدسون له للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره فيكون القضاء المبرم عليهم ، وهم الذين يغنمون الغنائم الطائلة من وراء هذه الطقوس والشعائر الدينية المعقدة ، وينعمون بتلك القرابين التى يقدمها الناس إلى الآلهة بإرشادهم .

وكان لهؤلاء الكهنة فى تلك الأيام شهرة واسعة فى أعمال الرقى والتعاويذ لطرد الجن والعفاريت والأرواح الخبيثة ، وكانوا إلى جانب ذلك يفسرون الأحلام وينبئون عن المستقبل ويحولون دون تأثير العين الحاسدة وغير ذلك من الخرافات التى كانت سائدة بين الناس فى ذلك الوقت . وقد هاجمهم زرادشت وعاب عليهم هذه الأعمال الخرافية ، وناشد الشعب أن يقلع عن هذه الأوهام والضلالات التى جرّت عليه البؤس والشقاء ، وحذّرهم من السير فى هذا الطريق الضال الذى رسمه لهم هؤلاء الكهنة الضالون . وكانت هذه ضربة أخرى أصابت الكهنة ومن يسير على منوالهم على يد زرادشت فحنقوا عليه وعقدوا العزم على القضاء عليه .

اتهم رجال الدين زرادشت بأنه يدعو إلى عقائد وآراء تهدم دين آبائهم وأجدادهم وتقضى على الشعائر والعبادات المقررة منذ أقدم الأزمان ، كما أنه يسب آلهتهم ويكفر بها

ويحض الناس على اتباعه ، لذلك لجأوا إلى الطبقة الحاكمة طالبين إبعاده عن البلاد لأنه خطر يهدد أمن الناس وسلامتهم .

وقد استمع الحكام لرجال الدين فهددوا زرادشت وأخافوه كما هددوا هؤلاء الذين أخذوا يميلون إلى تعاليمه وآرائه الجديدة بالنفي والحرمان من المجتمع ، فتخلى الناس عنه كما تنكر له أهله وعشيرته ، وهكذا تخلى الناس جميعاً عن زرادشت فلجأ إلى أهرمزدا يسأله العون فى تلك المحنة كما يعاون الصديق الصديق .

ترك زرادشت أهله ومسقط رأسه وأخذ يتنقل من بلد إلى آخر ، وكانت شهرته تسبقه إلى كل مكان يحل فيه وأخذت الألسنة تلوك القول بأنه رجل دعى يسب الدين ورجال الدين ، لذلك لم يستضفه أحد ، وإن كانت آداب الضيافة فى المشرق تقضى بفتح الأبواب أمام أى طارق أو غريب . وتذهب الروايات إلى أن زرادشت كان إذا حل ببلد من البلاد وجد الأبواب كلها موصدة فى وجهه فلا يجد أمامه إلا حظائر الخيل والبغال والحمير .

وهكذا مرت الأيام والفصول والأعوام وزرادشت يعيش عيشة ضنكاً ، وقد قطع إيران كلها طولا وعرضاً وهو يعظ الناس ويرشدهم ويجادلهم . وأخيراً قدر له أن يستهوى بعض المريدين

وكان أولهم ابن عمه الذى آمن برسالته وغدا تلميذه المقرب إليه المتعصب لدعوته .

وصل زرادشت فى طوافه إلى الشرق الأقصى من إيران، أى إلى البلاد التى كانت تعرف باسم بكتريا وهناك أخذ أتباعه يزيدون يوماً بعد يوم ، ثم قوى مركزه واشتد ساعده عندما اعتنق الملك كشتاسب هذا الدين الجديد ، فكان ذلك بمثابة الدعامة الكبرى للديانة الزرادشتية .

ويبدو لنا زرادشت من خلال القصص والأساطير المختلفة أنه كان مصلحاً اجتماعياً ، وكثيراً ما تصوره لنا المصادر الزوادشتية القديمة فى صورة الداعى إلى الإصلاح الزراعى بين شعب يكاد يكون من القبائل الرحّل . وهو نفسه يصرح بأن دعوته جاءت إليه عن طريق « خوار البقر » . وقد أفلح زرادشت فى لم شمل هذه القبائل المتفرقة وجعل منها أمة واحدة متماسكة وذلك بفضل الدين الجديد الذى بشّر به .

والظاهر أن زرادِشت قد وضع مشروعات الإصلاح الاجتماعى التى قام بتنفيذها خلال الفترة التى اعتزل فيها الناس فى بطن الجبل ، وكان يعتقد أن هذه الإصلاحات الاجتماعية جزء من رسالته الروحية . لقد ضاق زرادشت ذرعاً بتلك الخرافات والأوهام التى كانت تأخذ بخناق الشعب الفارسى

فجعلت حياته فى ظلام دامس وحالت بينه وبين التقدم ، كما أزعجته تلك الهجمات المتتابعة التى كان يشنها التورانيون على بنى قومه فتروع الآمنين الوادعين وتنشر البؤس والشقاء فى ربوعهم بعد الخير والهناء . لقد شعر شعوراً عميقاً — مثله فى ذلك مثل بوذا فى الهند بعد ذلك بقرن من الزمان — بتلك الشرور والآلام والكوارث التى كانت تأخذ بخناق البشر ، ولكنه أتى بحل لهذه المعضلة يباين الحل الذى جاء به بوذا كل المباينة .

لقد أوحت إليه لحظة من لحظات التأمل والتفكير أن هذه الشرور والآلام ما هى إلا من فعل روح خبيث ، هى من فعل الشيطان الماكر كبير الأفاكين .

« إننى سوف لا أستسلم إليه ، إن مارد الظلام الكبير سوف يقهره إله النور » .

« سوف أذهب لأعظ قومى وأخبرهم أن آلهتهم القديمة التى صورتها لهم المخاوف والأوهام ما هى إلا من صنع الشيطان الأكبر أهرمن ؛ وأخبرهم أن غارات التورانيين على بلادنا واستيلاءهم على قطعاننا وأموالنا هى أيضاً بإيعاز من هذا الشيطان الشرير » .

«ولكنى سوف أنادى بينهم أيضاً بأن الوقت قد حان

للقضاء على هذا الشيطان ، وأن أهرمزدا إله النور والحق سوف يقهر أهرمن إله الشر والظلام » .

جاشت هذه الخواطر فى نفس زرادشت فاطمأن إليها وعقد العزم على تحقيقها بكل ما أوتى من قوة وجهد، وعلى الرغم من جميع الصعاب التى قد تعترض طريقه .

ولقد تجلى الله الواحد القهار لزرادشت وهو فى هذه الحالة من التطهر النفسى فى شكل رؤى عجيبة وأنوار قدسية ساطعة . وهذه الرؤى موضع تفاصيل وجدل طويل بين الكتاب المتأخرين لأنهم يدركون أهميتها فى حياة زرادشت ، بل هم يؤرخون حياته ابتداء من هذه اللحظة الرهيبة ، ويعدون السنة الحادية والثلاثين من عهد الملك كشتاسب أول سنة من تاريخ الديانة الزرادشتية . ففى اليوم الخامس عشر من شهر أرتقاهستو (٥ مايو سنة ٦٣٠ ق م) هبط على زرادشت الإلهام السماوى .

وتذهب الأساطير والروايات المختلفة أن زرادشت كان واقفاً فى فجر ذلك اليوم على ضفة مجرى نهر ديتى المقدس ثم هم بأخذ حفنة من مياه ذلك النهر ، وإذا بشبح مقبل عليه من ناحية الجنوب وفى يده قضيب يشعّ منه النور الذى يخطف الأبصار . كان ذلك الشبح هو « ڤوهومناه » كبير الملائكة ، وكان حجمه يكبر حجم الإنسان بتسع مرات . نادى

« ڤوهومناه » زرادشت وطلب إليه أن يخلى عنه بدنه ويتبعه إلى حيث يستمع لتعاليم أهرمزدا العظيم وملائكته الأطهار. وقد لاحظ زرادشت لأول مرة وهو فى حضرة أهرمزدا وملائكته أن لا ظل له فعزا ذلك إلى شدة الضوء المنبعث من هذا المجتمع الربانى . والواقع أن جلال الموقف وهيبته أفقدا زرادشت ذاكرته، وإلا كان أدرك أن « ڤوهومناه » قد أمره بأن يتخلى عن بدنه إلى جانب النهر المقدس .

ولُقن زرادشت وهو فى الحضرة الإلهية ، الأركان الأساسية للدين الحق ، واطلع على الرموز الخفية والأسرار العلوية التى تنبئ عما سيحدث من أمور فى تاريخ الديانة الزرادشتية . وأخيراً عاد زرادشت من حضرة أهرمزدا بعد أن تلقى الرسالة ، وهب من تلك اللحظة يعظ الناس ويبشرهم بهذا الدين الجديد .

لقد كان النور المنبعث من أهرمزدا وملائكته هو الشىء الذى أذهل زرادشت واستحوذ على لبه . وأهرمزدا فى الديانة الزرادشتية معناه إله الحكمة . غير أن الحكمة والحق والنور هى جميعاً بمعنى واحد فى لغة زرادشت . وقد أصبح للنور والنار من ذلك الوقت شأن كبير فى الديانة الزرادشتية . وينكر المجوس — وهم أتباع زرادشت الموجودون حتى الآن — أنهم يعبدون النار . والحق أن المجوس بعيدون عن الوثنية ولكنهم يجعلون

للنار المكان الأسمى فى احتفالاتهم وطقوسهم الدينية .

رسالة زرادشت

تقوم رسالة زرادشت التى خرج بها لإنقاذ العالم على وصايا غريبة قد تبدو نابية على الأسماع ، كما أنها لا تتفق أبداً والآراء والتعاليم التى قيلت قديماً وحديثاً لخلاص العالم وهداية الناس إلى الطريق المستقيم . ويمكن رد هذه الوصايا إلى أربعة أركان أساسية وهى :

« اعبد أهرمزدا .

مجد الملائكة .

العن الشياطين .

تزوج أقرب قريباتك » .

ومن الواضح أن هذه الأسس لا تصلح لأن تكون قواعد دين جديد ينظم أمور الناس ويهديهم إلى طريق الحق والصواب ، فإن عبادة أهرمزدا وتمجيد الملائكة ولعن الشياطين لا تتصل عن قرب أو بعد بأحوال الناس فى حياتهم اليومية . ولا ندرى الحكمة فى أن يتزوج المرء من أقرب قريباته ، لذلك كان الفشل نصيب زرادشت فى المرحلة الأولى من دعوته ، فلم يستمع له أحد من بنى وطنه وازدراه الناس ولحقت به الفاقة

والحرمان، يدلنا على ذلك تلك الصلاة الحارة التى توجه بها إلى أهرمزدا عند ما تخلى عنه الناس يسأله الغوث والعون :

« إننى أسألك أن تصدقنى القول يا إلهى أهرمزدا إذا كنت سوف أنال حقيقة ذلك الجزاء الذى وعدتنى به وهو لايعدو عشرة أفراس وجوادا وجملاً . وهل أحظى عن طريقك أيها الإله مزدا بالسعادة والخلود ؟ » .

استطاع زرادشت إبان رحلته الطويلة فى بلاد فارس وخاصة إلى الجزء الجنوبى الغربى ناحية الهند أى إلى بلاد سيستان الواقعة بين أفغانستان وبلوخستان أن يقلّب النظر فى أركان دعوته وأن يحوّر رسالته بعض الشىء حتى تتلاءم وحاجات الناس فى ذلك الوقت .

لذلك نجده يقلع عن التبشير بالزواج من أقرب القريبات ، وأخذ يحث الناس وخاصة طبقة الحكام والأمراء على فعل الخير والعدل بين الناس ولعن الشيطان أس المصائب جميعاً وعبادة أهرمزدا الإله الأعظم .

وتذكر الروايات أن حاكم سيستان قد استجاب لما يقول به زرادشت من حيث العدل والإنصاف بين الناس ولعن الشياطين وامتداح العمل الطيب وذم الخبيث من الفعال ولكنه لم يذهب إلى أكثر من ذلك ولم يعتنق هذا الدين الجديد .

والواقع أنه قد انصرمت سنوات عشر ما بين أول إلهام هبط على زرادشت وأول شخص اعتنق هذه الديانة الجديدة. وتذكر الروايات أن زرادشت قد شاهد خلال هذه السنوات العشر ست رؤى جديدة، كان يخرج بعد كل رؤيا منها بمعلومات جديدة عن العالم السماوى وأسرار الحياة. وكانت كل رؤيا من هذه الرؤى تتم على يد كبير من ملائكة أهرمزدا ، وقد زوّده كل واحد من هؤلاء الملائكة بالأسرار الخاصة التي يقوم على حفظها والسهر على رعايتها.

لقد حثه الملك « ڤوهومناه » فى الرؤيا الثانية على العناية بالحيوانات النافعة ، ولعل ضمير زرادشت كان لا يزال يؤنبه على ما بدر منه فى حداثته من تعذيب للحيوان. وأوصاه الملك « أشا » بالعناية بالنيران على اختلاف أنواعها. وزوّده الملك « شاثرا » بكل المعلومات والأسرار الخاصة بالمعادن. وأطلعه الملك « أرميتى » على أحوال البلاد والأقاليم المختلفة. ولقّنه الملك « هورڤتات » كل المعلومات المتصلة بالمياه وكيفية استعمالها والإفادة منها. أما الملك السادس والأخير « أمرتات » فقد زوّده بكل المعلومات الخاصة بعالم النبات.

وإذا رجعنا إلى الكتب المقدسة الزرادشتية نجد أن هذه الرؤى جميعاً قد حدثت إبان أشهر الشتاء وأنها تمت جميعاً

وهو فى غرب إيران . والظاهر أن زاردشت قد خص أشهر الصيف برحلاته التبشيرية ناحية المشرق، كما خص أشهر الشتاء بالاتصال بالقوى السماوية ، أما فيما عدا ذلك من أشهر السنة فكان يقضيها فى التأمل والتفكير داخل حدود وطنه .

والواقع أن هذا النبى الشاب كان يعمل على وضع نظام شامل لجميع مشكلات الحياة النظرية منها أو العملية على السواء. فكان أن ارتبطت فى ذهنه جميع الفضائل والواجبات المختلفة فقام بتجسيدها فى أفراد الملائكة وجعل لكل ملك منهم عالماً خاصًّا يقوم بتدبيره والسهر عليه . لقد أقام زرادشت مذهباً فلسفياً دينياً لا شك فى أن العالم مدين له به . فهو بذلك أول من فلسف الدين .

إن أفلاطون وفيثاغورس وهيرودتس جميعاً مدينون لهذا الحكيم بكثير من آرائهم وتعاليمهم ، ناهيك بفلاسفة الرومان واليهود والنصارى والمسلمين .

الإغراء

ما كاد زرادشت يتلقى آخر إلهاماته التى تتضمن جميع الأسرار والمعلومات التى تتصل بالحياة الدنيا وهى التى ضمنها فيما بعد كتاب الأبستاق (Avesta) إنجيل الديانة الزرادشتية —

حتى عادت خلائق الشر إلى إغرائه وتثبيط همته وكان هذا الإغراء والتثبيط غاية فى المكر والدهاء .

لقد ظل زرادشت يعظ الناس ويبشر بهذا الدين الجديد سنوات عدة ، وكان قد بلغ وقتذاك الأربعين من عمره ولكنه لم يجتذب إلى هذا الدين الجديد مؤمناً واحداً . وكان من الطبيعى والحالة هذه أن يعتريه اليأس والقنوط بعد هذا الجهد الذى بذله عبثاً فى سبيل هداية الناس ، وأن يعود فى هدوء وصمت إلى دين آبائه وأجداده .

وقد استغلت خلائق الشر هذه الحالة النفسية التى وصل إليها زرادشت فعملت على إغرائه وتثبيط همته لكى يترك ما هو فيه .

وحدث أن كان زرادشت فى يوم من الأيام فى زيارة أبيه فجاءه الشيطان ووسوس إليه قائلا :

« إنك ولد بورشاسب ، لقد عبدتنى أملك » .

وهنا نجد أن الشيطان قد لجأ فى إغرائه إلى أقدس الروابط الإنسانية وهى الرابطة التى تربط بين أفراد الأسرة الواحدة وخاصة بين الابن ووالديه فكيف يخالف الابن ما جرى عليه الوالدان من عبادة ودين ؟

غير أن زرادشت لم يعبأ بهذه الوسوسة وظل سائراً فى

طريقه لا يثنيه عن عزمه شيء . ثم جاءه الشيطان مرة أخرى ووسوس إليه قائلا :

« أيها النبي المجهد يا من ليس له تابع يشد من أزره ؛ بأى سلاح سوف تتغلب على هذا الدين القائم ؟ »

وفى هذه المرة نجد الشيطان يوسوس لزرادشت الذى أجهده النصب دون أن يفلح فى اكتساب شخص واحد يشد من أزره فلعله وهو فى هذه الحالة النفسية القلقة يقلع عما هو فيه ولكن زرادشت صاح قائلاً :

« سوف أقهرك أيها الشيطان بسلاحى الخاص وهو أمضى الأسلحة » .

ومضت فترة ليست بالقصيرة قبل أن يعاود الشيطان إغراء زرادشت من جديد ، وأخيراً ظهر له فى صورة فتاة جميلة كان يتعشقها زرادشت فى صباه ، وأخذت تستعطفه وتحثه على ترك ما هو فيه والعودة إلى دين آبائه وأجداده ، ولكنه خذلها وخرج منتصراً من هذه المحاولات المتكررة التى حاول فيها الشيطان إغراءه والانتصار عليه ، إذ كانت الرؤى التى شاهدها لا تزال ماثلة أمام عينيه فلم ينخدع بهذه الأقوال التى ألقاها الشيطان فى روعه .

وما إن مر زرادشت بهذه التجربة القاسية حتى لاح له

أول معتنق لهذه الديانة الجديدة فى شخص ابن عمه « متيوما » .

وما كادت تلوح لزرادشت هذه البارقة الأولى من بوارق النصر والأمل حتى عاد من جديد إلى شكواه قائلا :

« أبعد عشر سنوات أستهوى رجلا واحداً ؟ ! »

غير أن زرادشت على الرغم من يأسه قد أخذ يتنقل من بلد إلى آخر كما ذكرنا يدعو الناس إلى هذا الدين الجديد إذ كان على يقين من أن الله سوف يثيبه على جهاده فى سبيل نشر دينه إن لم يكن فى هذا العالم الأرضى فسيكون فى عالم السموات العلى .

زرادشت والملك كشتاسب

أنفق زرادشت السنتين اللتين أعقبتا اعتناق ابن عمه ميتوما لهذا الدين الجديد محاولا أن يكسب تأييد الملك كشتاسب لهذا الدين . وكان كشتاسب فى ذلك الوقت ملكاً قوياً يحكم الجزء الشرقى من إيران وهو القسم الذى تسود فيه الديانة الوثنية القديمة التى يمقتها زرادشت أشد المقت ويعمل على القضاء عليها .

خرج زرادشت قاصداً قصر هذا الملك العظيم ليعرض

عليه هذا الدين الجديد ويدعوه إلى اعتناقه فلعله يوفق إلى ذلك ويكسب تأييد هذا الملك فيكون ذلك إيذاناً بانتشار هذا الدين . وقد اعترض زرادشت وهو فى طريقه إلى قصر الملك إله الظلمة هو وأعوانه من خلائق الشر وطلبوا إليه أن يخفى كتاب الأبستاق الذى يحمله فى يده وأن يعود أدراجه ولكن زرادشت تلا فصلا من هذا الكتاب فانزعجت خلائق الشر وفرت من أمامه . وما إن سار قليلا حتى تصدى له زعيمان من زعماء البلاد عرفا بالطغيان والجبروت فعرض عليهما زرادشت أن يدخلا فى دين أهرمزدا ولكنهما لم يكترثا لكلامه وهمّا بإيذائه. فسأل زرادشت ربه العون فلم يلبث أن هب إعصار قوى أطاح بالزعيمين فى الهواء وظلا معلقين فى الفضاء إلى أن تجمعت حولهما الطيور الجارحة وأخذت تنهش جسديهما بأظافرها ومناقيرها ولم تتركهما إلا عظاما نخرة هوت بعد ذلك إلى الأرض .

وكانت شهرة زرادشت قد بلغت آذان الملك كشتاسب فأصبح مشوقاً لرؤية هذا النبى والتحدث إليه ؛ لذلك ما إن بلغه خبر مقدمه إليه حتى استعد لملاقاته ومعه عدد كبير من رجاله . وكان من أمره أن دعا الحكماء والفلاسفة إلى بلاطه فلبى دعوته ما لا يقل عن ستين رجلا منهم . وتذهب الروايات إلى أن

زرادشت دخل بلاط هذا الملك وفى يده كتلة من اللهب يحركها إلى كل ناحية دون أن تؤذيه . ثم ناول الملك هذه الكتلة من اللهب ثم حاشيته من بعده فلم يصبهم أى أذى . ولما سأله الملك أن يأتى بعجيبة تؤيد نبوته طلب زرادشت أن يصب على صدره النحاس المذاب . وقد صبوا عليه النحاس المذاب أربع مرات فلم يظهر على جسده أى أثر لهذه النيران المذابة . وبعد ذلك طلب الملك من الحكماء والفلاسفة أن يحاجوه ويمتحنوه . فأخذوا يلقون عليه السؤال تلو الآخر وهو يجيب عن أسئلتهم الإجابة السديدة المفحمة. وظل هؤلاء الحكماء والفلاسفة ثلاثة أيام وهم يلقون الأسئلة العويصة النظرية منها والعملية الخاصة بأحوال الدنيا والعالم الآخر وزرادشت يجيب عنها الإجابة المسكتة المقنعة المدعمة بالبراهين الدامغة . وبعد أن أسكت زرادشت هؤلاء الحكماء بواسع علمه ومقدرته الكلامية انطلق يبشّر بهذا الدين الجديد فى حضرة الملك وحاشيته ، ثم طلب إليه أن يعتنق هذا الدين . وكان الملك كشتاسب قد تأثر غاية التأثر بما شاهده وسمعه من زرادشت ولكنه قال إن الاندفاع فى مثل هذه المسائل الدقيقة أمر غير مستحب ولكنه سوف يتمهل بعض الوقت ليتدبر هذا الأمر . وفى تلك الفترة كان زرادشت موضع الحفاوة

والإكرام وقد أسكنه الملك بيتاً جميلا إلى القرب من قصره .

كانت الغيرة قد أنشبت أظافرها فى قلوب هؤلاء الحكماء والفلاسفة الذين نالتهم الهزيمة على يد زرادشت فأرادوا أن ينتقموا لأنفسهم منه . فكان أن رشوا خادم البيت الذى ينزله زرادشت ودسوا فى فراشه بعض رؤوس القطط والكلاب وذيولها وغير ذلك من الأدوات التى تستخدم فى السحر الأسود . وفى يوم من الأيام كان زرادشت جالساً إلى جانب الملك يقرأ له بعض فصول الأبستاق فتقدم هؤلاء الحكماء وأسروا فى أذن الملك أن هذا الوافد إليهم إنما هو ساحر مبين ، وأنه قد خدع الملك بقوة السحر وما عليه إلا أن يرسل بعض جنوده إلى بيت زرادشت ليحضروا له الأدوات التى يستعين بها على سحره وشعوذته . وما إن شاهد الملك هذه الأشياء الدنسة حتى طرح من أمامه كتاب الأبستاق — إنجيل الديانة الزرادشتية — وأرسل زرادشت إلى السجن مكبلا بالحديد ، وظل زرادشت ملقى فى غياهب السجن أسبوعاً يعانى عذاب الغدر والخيانة .

واتفق فى ذلك الوقت أن مرض فرس الملك الجميل المحبب إليه مرضاً غريباً إذ كانت قوائمه تغوص فى بطنه . وقد اغتم الملك لذلك واستدعى مهرة البياطرة والجراحين لعلاجه ولكن دون جدوى . وكان حزن الملك على الفرس شديداً حتى إنه

امتنع عن الطعام وعز عليه النوم .

ولما سمع زرادشت عن مرض الفرس من حارسه أرسل إلى الملك رسالة ينبئه فيها أنه يستطيع إبراء الفرس من مرضه . فاستدعاه الملك للحضور بين يديه وأخبره أنه إذا استطاع حقيقة أن يبرئ الفرس من مرضه فإنه يكون نبياً حقاً لأهرمزدا . وقد طلب زرادشت من الملك أن يلبي له شروطه الأربعة ، كل شرط منها نظير إبراء رجل من أرجل الفرس . وقد قبل الملك ما اشترطه زرادشت . فالشرط الأول أن يعتقد الملك بقلبه ولسانه أن زرادشت رسول من عند الله ، والشرط الثانى أن يقوم الأمير أسفنديار — ولد كشتاسب — بنشر هذا الدين بحد السيف ، والثالث أن تعتنق الملكة هذا الدين الجديد ، أما الشرط الأخير فهو أن يدعو الملك خادم البيت ويطلب إليه أن يخبره عن حقيقة ما حدث بعد أن يؤمنه على حياته .

قام زرادشت بإبراء الفرس من مرضه وقام الملك من ناحيته بتنفيذ ما اشترطه زرادشت . وما إن تكشفت الحقيقة للملك حتى قام من مجلسه وقبل رأس زرادشت وجبهته واستماحه وأجلسه على العرش بالقرب منه ، وهكذا اعتنق الملك كشتاسب الديانة الزرادشتية ووقف نفسه وجنده وماله لنصرة هذا الدين ، وبذلك تقوضت أركان الدين الإيرانى الوثنى القديم .

انتشار الديانة الزرادشتية

لقد انتشرت هذه الديانة الجديدة فى طول بلاد إيران وعرضها انتشار النار فى الهشيم، وأصبح شعار زرادشت « دين الميديين والفرس الذى لا يتغير » . وما إن انقضى قرن من الزمان على وفاة زرادشت حتى كان الملك دارا المجوسى يقرع أبواب أثينا بجيوشه الجرارة وأصبحت الشعوب فيما بين الهند وشبه جزيرة اليونان تعتنق هذه الديانة الزرادشتية .

وكانت أسعد أيام زرادشت هى الفترة ما بين اعتناق كشتاسب هذا الدين الجديد إلى أن وافته المنية بالغاً من العمر السابعة والسبعين . وكان شغله الشاغل خلال ذلك الوقت محاربة أرجاسب ملك الصين الوثنى . ولا ندرى على التحقيق هل اشترك زرادشت بنفسه فى الحروب التى استعرت بين ملك إيران وملك الصين أو كان يشد أزر المحاربين بعظاته فقط.

وتذهب الروايات إلى أن زرادشت قد لقى حتفه فى تلك الحروب إذ تربص به محارب تورانى وطعنه طعنة قاتلة ، وتضيف تلك الروايات أيضاً أن زرادشت رمى قاتله بمسبحة كانت فى يده فقضت عليه .

وتذهب الأساطير إلى أن أحد كبار البراهمة فى الهند

خرج على رأس جيش عظيم لمحاربة زرادشت والقضاء عليه ، ولكن ما إن التقى هذا البرهمى بزرادشت حتى أفحمه هذا الأخير بقوة جدله وحكمته وإطلاعه على جميع الأسرار ، فلم يسع هذا البرهمى إلا أن اعتنق هذا الدين الجديد وعاد يبشر به بين بنى قومه ، فاعتنق على يده ثمانون ألفاً من أهل الهند هذه الديانة الزرادشتية .

ولعل هذه الديانة قد بلغت أوجها فى عهد الإمبراطورية الأكمينية . وكانت هذه الإمبراطورية العظيمة تضم ثلاثة شعوب أو دول مختلفة هى بكتريا وميديا وفارس . وكان أهل بكتريا يقطنون القسم الشمالى الشرقى ، والميديون القسم الشمالى الغربى ، والفرس القسم الجنوبى الغربى . وقد تمّ اندماج هذه الشعوب بعضها مع بعض فى أمة واحدة متجانسة تدين بالديانة الزرادشتية فى الوقت الذى غزا فيه الإسكندر الأكبر مملكة فارس .

وقد سبق أن ذكرنا أن الملك كشتاسب كان سيف هذا الدين الجديد وحاميه . فلما توفى هذا الملك عمل أتباع هذه الديانة على نشر ديانتهم بمختلف الطرق . ولم يلبث أن ظهرت بينهم طبقة الكهنة وعليهم رئيس كبير جمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية للطائفة الزرادشتية . وقد أخذت هذه الطبقة على

عاتقها مهمة نشر الديانة الزرادشتية، فأوفدوا المبشرين إلى بلاد بعيدة مختلفة لنشر هذه الديانة بين الناس وكانوا إذا عادوا إلى أوطانهم من مهمتهم الدينية المقدسة احتفل أهل الديانة الزرادشتية بمقدمهم احتفالا كبيراً.

ولم يكن الطريق معبداً أمام هذه الدعوة بل صادف المبشرون كثيراً من الصعاب، حتى إن بعض الحكام قد منعوهم من دخول بلادهم.

ولكن على الرغم من ذلك فقد تمكن هؤلاء المبشرون من رفع ألوية هذا الدين فى بقاع مختلفة بعيدة. فقد خضعت أرمينية للنفوذ الزرادشتى منذ تاريخ متقدم وساد فيها نوع مشوّه من هذه الديانة عدة قرون. كذلك كانت كپادوشيا وليديا وليسيا من دول العهد القديم مسرحاً كبيراً للنشاط الزرادشتى.

وكان ملوك الإمبراطورية الإكمينية متسامحين مع جميع الأديان التى تدين بها شعوبهم. وتذكر المصادر أن هؤلاء الملوك كثيراً ما قاموا بتشييد معابد الديانات المختلفة وترميمها على الرغم من أنهم كانوا على الدين الزرادشتى والمتحمسين له. وكان هؤلاء الملوك يردون كل أفعالهم العظيمة التى قاموا بها إلى أفضال أهرمزدا. فكان دارا يذكر أن أهرمزدا هو الذى جعله

ملكاً وهو الذى مكّنه من حكم إمبراطوريته الشاسعة حكماً قوياً عادلا . وهو الذى مكّنه من الانتصار على أعدائه فى حروبه العديدة . كذلك فعل ابنه أجزرسيس فقد كان ينسب كل أعماله المجيدة إلى فضل الإله أهرمزدا ورعايته .

الله وملائكته عند زاردشت

إن أهرمزدا هو الإله الأعظم عند زاردشت، وهو قديم أزلى وهو وحده الذى لم يولد ولن يموت وهو علة العلل وليس له علة وهو المصدر الأول لجميع الموجودات . وهو روح الأرواح لا يرى ولا ينظر لأن الصفة الأساسية لما هو روحى أن لا يراه أحد ، فهو وإن كان موجوداً فى كل مكان إلا أنه لا يُرى فى أى مكان .

وأهرمزدا يعلم الماضى والحاضر والمستقبل وهو فى علمه هذا ليس له ند . وهو وحده الذى يتصف بأنه العالم بكل شىء . وهو يعلم الغيب ودخائل النفوس إذ لا يخفى عليه سر من الأسرار

وهو القدير على كل شىء على الرغم من مناهضة الشيطان له ، وكل شىء فى العالم له ما يسمو عليه إلا أهرمزدا

فليس فى العالم ما يسمو عليه . وهو لا يفتقر إلى شىء وكل شىء مفتقر إليه . وإن أقوى الناس يشعرون بضعفهم أمام هذا الإله . وهناك لحظات فى حياة كل شخص يشعر فيها أن قوته قد خانته فهو يتطلع إلى قوة غير منظورة تشد من أزره وتقوى من نفسه ، وأهرمزدا هو تلك القوة الخفيّة لأنه حامى كل شىء . وهو معين من لا معين له وراعى الفقراء والأغنياء على حد سواء ومفرج الهموم عن قلوب المهمومين ومانع الضر عن الناس

وهو خالق الخلق كله والملائكة الأبرار ، كما خلق الجنة والنار والشمس المشرقة والقمر المنير والنجوم اللامعة والهواء والماء والنار والأرض والشجر والدواب والمعادن والناس أجمعين . وهو الذى حرّك السموات ورفعها من غير عمد . وقد وهب لنا أعيناً لنرى بها وآذاناً لنسمع بها ولساناً ناطقاً وأيدى لنمسك بها الأشياء وأرجلا نمشى عليها . وهو أب الإنسان خلقه وشرّفه على كافة المخلوقات بالعقل والبصيرة . ومن واجب الإنسان أن يطيع خالقه . وهو كالناسج قد نسج أشياء كثيرة مختلفة على نول الطبيعة . وهو المصدر الأبدى لجميع النعم والبركات . وأهرمزدا خير محض لا شر فيه وكل ما فى العالم من خير منبعث منه . وهو منبع الخير كما هو مصدر كل مجد ونور

وسعادة . وهو الواهب المعطى ، يريد الخير دائماً ولا يفكّر فى الشر أبداً . وإن بره وعطفه يشمل الخيِّر والخبيث على السواء لأن إرادته خيّرة على الدوام وهو الرحمن الرحيم يعطف على هؤلاء الذين يتوجهون إليه فى اليسر والعسر . وعلى المرء — كبيراً كان أم صغيراً — أن يفكر فى اليوم مائة ألف مرة فى تلك النعم الوفيرة التى أسبغها عليه أهرمزدا لأن عدم الإقرار بالنعمة ونكران الجميل يؤديان بالمرء إلى مستقر العذاب الأليم .

وفى نهاية الزمن سوف يرد أهرمزدا إليه جميع مخلوقاته ، بل إن الآثمين سوف لا يتركون فى إثمهم إلى أبد الآبدين ، لأن أهرمزدا يحزنه أن يرى خلقه يقاسون العذاب ولو إلى حين بسبب مسلكهم المشين .

إن الأنوار جميعاً تنبعث من أهرمزدا وهو الحق الأبدى فى عالم الأخلاق والفضيلة . وقد ذكر فرفريوس الصورى أن المجوس يرون أن جسم أهرمزدا يشبه النور وأن روحه شبيهة بالحق .

وأهرمزدا هو المشرع القدسى وهو بهذه الصفة القاضى الأسمى ؛ فالمذنب الذى يعارضه ، والآثم الذى يعيش بين الناس ويتحرك دون أن يدخل الإيمان قلبه ، والثائر الذى يخرج على السلطة القدسية هؤلاء جميعاً فى حاجة إلى إصلاح وتهذيب ،

وأهرمزدا بصفته إله الرحمة من صفاته العفو ولكنه يعاقب أيضاً بصفته إله العدل . والإنسان فى كل الأزمان فريسة هذا النضال الدائم بين الخير والشر ، فهو إما أن يكون إلى جانب أهرمزدا وإما أن يقع فريسة لأهرمن إله الشر . والدين هو الذى يبصّر الإنسان ويهديه إلى طريق الخير ويقيم صلاته مع إله السموات على أسس سليمة قويمة وبذلك ينجو من الوقوع فى حبائل الشيطان .

وزرادشت عندما يتحدث عن هذا الإله الأسمى لا يتحدث عنه باحترام وتبجيل فحسب ، إنما يتحدث عنه أيضاً كما يتحدث المرء عن صديقه الحميم فهو يقول عن نفسه إنه « حبيب الله وصفيه » وإنه سيظل مادحاً لأهرمزدا ما دام فيه عرق ينبض .

هذه خلاصة أنظار زاردشت فى طبيعة الإله الواحد القهار ، وقد تضمنت فيما بعد الأديان السماوية الثلاثة الكبرى : أى اليهودية والمسيحية والإسلام ، هذه الصفات الإلهية جميعاً التى قال بها زرادشت وغدت من أسس علم اللاهوت عند اليهود والنصارى ، وموضوع علم الكلام عند المتكلمين فى الإسلام .

وهناك إلى جانب أهرمزدا ملائكته الأبرار وعددهم سبعة وهم يعرفون باسم « السبعة المقدسون الخالدون » خلقهم أهرمزدا

ما بين ذكور وإناث . وتعرف السبعة الأيام الأولى من كل شهر بأسمائهم ، وموطنهم السموات العلى . وقد جاء فى بعض المصادر البهلوية المتأخرة أن هؤلاء الملائكة السبعة قد فاض الواحد منهم عن الآخر : أى الثانى عن الأول والثالث عن الثانى وهكذا ، وأن أهرمزدا قد خلق كبيرهم فقط المسمى ڤوهومناه .

وهؤلاء الملائكة خالدون لا يراهم أحد، وهم على جانب كبير من الحكمة والرحمة والبصيرة ، يشع منهم النور الخاطف حتى إن زرادشت لم ير خياله على الأرض عند ما كان فى حضرتهم فى السموات العلى .

وأفضال هؤلاء الملائكة على بنى الإنسان كثيرة لا تعد . فهم الذين يتقبلون الصلوات والقرابين من المؤمنين الصالحين الذين يتلون صلاتهم بالشكل الصحيح المضبوط . وهم لا يتقبلون هذه الصلوات من غير الورعين الذين يتلونها بشكل خاطئ . وهم يجتمعون ثلاث مرات كل يوم فى معابد النار لهداية هؤلاء المؤمنين الذين يترددون على هذه الأماكن المقدسة ورعايتهم . وهؤلاء الملائكة يحيطون بالإنسان لمراقبة فعاله. وهم موكلون برعاية المخلوقات الأرضية السبع من إنسان وحيوان ونار ومعادن وأرض وماء ونبات .

و « ڤوهومناه » هو أول هذه الملائكة ، ومعناه الفكر الطيب

وهو أسمى المخلوقات جميعاً فهو يلى أهرمزدا نفسه فى المرتبة أى أنه كبير الملائكة وأسماهم .

الشر فى تعاليم زرادشت

استشعر زرادشت فى قرارة نفسه أن العناية الإلهية قد اختارته للجهاد إلى جانب الحق والعدل ضد الشر والفساد ، ولدعوة الآخرين لمشاركته فى هذا الجهاد . وأن أهرمن روح الشر هو سبب كل ما فى هذا العالم من آثام وشرور . وأن أهرمن هذا فى قتال ونضال مع إله النور والحق منذ بدء الخليقة . وقد أطلع أهرمزدا نبيه زرادشت على جميع ما خلقه من خير وعدل وكيف أن أهرمن قام معارضاً له ومشاكساً فخلق الشرور والآثام .

وروح الشر هذه لا تعمل بمفردها إنما تعاونها خلائق الشر الأخرى المعروفة باسم « ديڤا » وهى جميعا أشد أعداء أهرمزدا . وقد آثرت هذه الخلائق منذ بادئ أمرها النية الخبيثة واندفعت بأمر من روح الشر أهرمن تغدر بالناس وتغرر بهم وتسلبهم الحياة الهانئة السعيدة والخلود الذى ينتظرهم فى الحياة الآخرة . وإن الأقوام التى تنقاد إلى هذه الخلائق الشريرة

هى أيضاً بذور للنية الخبيثة وللكذب والعجرفة . و « دروج » وهو كبير هذه الخلائق الشريرة يعمل على الدوام على مناهضة « آشا » روح الحق والصدق والعدل . فالحياة على هذا نضال مرير مستمر بين « آشا » و « دروج » أى بين الحق والباطل .

وإذا ما قام أهرمزدا إله النور بخلق أرض طيبة تغمرها السعادة والهناء قام أهرمن إله الشر بخلق بعض الطواعين والنوازل التى تعصف بالناس وتحيل سعادتهم إلى بؤس وشقاء . وعلى هذا النحو خلق البرد القارس والحر اللافح والكبرياء والجشع والإلحاد والكفر وغير ذلك من الآثام التى يتردى الناس فيها .

الثواب والعقاب عند زرادشت

أدرك زرادشت بثاقب بصره أن خيار الناس لا ينالون عادة فى هذه الحياة الدنيا ما يستحقون من حسن الجزاء ، لذلك فهم يتطلعون إلى المستقبل لتعويض ما لحقهم من غبن وحرمان فى هذه الحياة الدنيا . فقد جاء فى كتاب الأبستاق « سوف تبتهج نفوس الخيرين فى الحياة الثانية الخالدة ، كما سيتعذب الكاذبون إلى الأبد » . والمؤمن هو الذى يتطلع إلى

مملكة العدل (المملكة السماوية) حيث يعمل الله على تعويض ما فاته فى الحياة الدنيا من لذة وهناء .

وذكر زرادشت أن هذا العالم الدنيوى متصل بالعالم الآخر بجسر يسمى « جسر الانفصال » . وعندما يمر الأشرار فوق هذا الجسر يرتجفون من الفزع والخوف ، أما الأبرار الصالحون فيمرون عليه وهم مطمئنون إلى مصيرهم الذى ينتظرهم ، ثم إن زرادشت نفسه يقود أتباعه المخلصين عندما يعبرون هذا الجسر .

وسوف تكون النار هى الحكم بين أفعال الناس الطيب منها والخبيث . ومن المعلوم أن هذه الفكرة لا تزال سائدة إلى اليوم بين كثير من الشعوب والقبائل . فقد جاء فى كتاب الشاهنامة أنه فى أيام شابور الثانى قدم آدرباد نفسه للمحنة ليقحم مجادليه فصب النحاس المذاب على صدره فلم يمسه الضر . وكان أهل اليمن يحتكمون إلى النار فمن كان منهم صادقاً مخلصاً كانت النار برداً وسلاماً عليه ، ومن كان كاذباً شريراً أحرقته النار وأهلكته . ولا يزال الأعراب فى مصر وغيرها يحتكمون إلى نار تسمى البشعة .

ويذكر زرادشت أن الأشرار سوف يخلدون فى جهنم مأوى الكذبة ومن خبثت نياتهم ، أما الأبرار الصالحون

فيصعدون إلى السماء . والظاهر أن زرادشت يجعل إلى جانب السماء وجهنم مكاناً ثالثاً لهؤلاء الذين تعادلت سيئاتهم مع حسناتهم .

ويتولى أهرمزدا بنفسه حساب الناس يوم الحساب ، وأحياناً يتولى ذلك نيابة عنه أحد الملائكة المقربين إليه .

الديانة الزرادشتية بعد عهد زرادشت

يرجع الفضل فى جمع تعاليم زرادشت وتضمينها كتاب الأبستاق إلى أردشير أول ملوك الساسانيين ورأس الأسرة الساسانية المالكة التى ظلت تحكم البلاد من عام ٢٢٤ إلى عام ٦٥٠ للميلاد . وأتم الملك شاهبور الثانى الذى حكم من عام ٣٠٩ إلى عام ٣٧٩ العمل الذى بدأه أردشير . وكان الملك شاهبور متحمساً للديانة الزرادشتية وعدواً مبيناً للكفرة والملحدين .

وفى عام ٦٥٠ للميلاد اجتاحت الجيوش الإسلامية مملكة فارس وانتشر الإسلام فى تلك الدولة وقضى على الديانات الأخرى التى كانت منتشرة هناك . وكان من أمر أتباع الديانة الزرادشتية أن اعتنق معظمهم الدين الإسلامى وظلت

قلة منهم على الديانة الزرادشتية وهم الذين يعرفون باسم المجوس ولا يزيد عددهم فى مملكة إيران على عشرة آلاف نسمة . وقد فر بعض هؤلاء المجوس إلى الهند من وجه الجيوش الإسلامية فكانوا أصل طائفة المجوس الموجودة فى الهند إلى اليوم .

ويرى بعض العلماء أن المجوس فى الهند لم يلجأوا إليها فراراً من الفتح الإسلامى أو خشية الاضطهاد الدينى ، إنما ذهبوا إلى الهند بمحض إرادتهم سعياً وراء التجارة .

وتؤكد الروايات أن هؤلاء المجوس قد نزلوا على شاطئ الكچرات بالهند عام ٧١٦ وقد حملوا معهم نيرانهم المقدسة . ويبلغ عدد المجوس فى الهند فى الوقت الحاضر مائة ألف نسمة نصفهم تقريباً فى بمباى ولهم شأن يذكر فى الحياة العامة فى تلك البلاد على الرغم من قلة عددهم .

وظل مجوس الهند على صلات مع إخوانهم فى فارس بل كانوا يلجأون إليهم فى كل ما يتصل بشئون دينهم . على أن ذلك لا يمنع أنهم تأثروا كثيراً بالديانة الهندوسية وبالعادات الشائعة فى الهند ، فأصبح زواج الأطفال أمراً شائعاً بينهم وأصبح الكهّان منهم يؤلفون طبقة خاصة يتوارثون وظيفة الكهانة دون غيرهم من أبناء الطائفة .

وقد أثرى هؤلاء المجوس من اشتغالهم بالتجارة فى الهند

فاقتنوا العبيد ولقنوهم الديانة الزرادشتية . وصادف هذا العمل هوى فى نفوس إخوانهم مجوس فارس ، ولكنه لقى معارضة من جانب المفكرين من مجوس الهند الذين خشوا أن يؤدى هذا العمل إلى الهبوط بمركز المجوس الاجتماعى فى الهند .

وعلى الرغم من تحمس المجوس لدينهم ، فإنه من المتفق عليه أن حركة الركود والاضمحلال الدينى التى أصابت الهند فى بداية القرن التاسع عشر قد شملت المجوس كذلك ، فقد كان هؤلاء فى ذلك الوقت لا يعنون إلا بجمع الثروة عن طريق التجارة أو غيرها من الطرق ، أما ثقافتهم الدينية فقد ران عليها الشىء الكثير من الركود والاضمحلال بل كان معظم كهانهم لايدرون من أصول دينهم شيئاً .

وأخذت الديانة الزرادشتية فى الانتعاش ثانية منذ منتصف القرن التاسع عشر وذلك بعد أن أقبل بعض علماء الإفرنج على دراسة هذه الديانة فى كتبها ونصوصها الأصلية ، وأذاعوا نتائج بحوثهم فى كتب ونشرات كان لها أكبر الأثر فى حركة الإصلاح الدينى .

وقد نادى زعماء هذا الإصلاح بوجوب الرجوع فى كل المسائل الدينية إلى الكتب الأصلية للديانة الزرادشتية وإلى تعاليم زرادشت نفسه . لقد عارض هؤلاء المصلحون تلاوة

الصلوات الدينية الزرادشتية بتلك اللغة الفارسية القديمة التى لا يفهمها أهل الجيل الحاضر ، وطالبوا أن تؤدى هذه الصلوات إما باللغة الكجراتية وإما باللغة الإنجليزية ، كما نهضوا لإصلاح العقيدة ذاتها وتخليصها من العناصر الدخيلة عليها . ومن الطبيعى أن يعارض المحافظون من رجال الدين المجوسى هذه الإصلاحات مخافة أن تؤدى إلى زوال سلطانهم فعملوا على محاربتها ما وسعهم إلى ذلك سبيلا .

الحياة الدينية عند مجوسي الهند

وظيفة الكهانة بين المجوس وراثية فهى محصورة فى بعض الأسر . بيد أن الأسرة تفقد حقها فى هذا الشرف الدينى إذا ظلت ثلاثة أجيال دون أن تهيئ من بين أفرادها من يصلح لتبوُّؤ هذا المنصب الدينى الخطير . ومعظم الكهنة من طبقة الهرابذة وهى أدنى طبقات هذا السلك الدينى . ويمكن الهربذ وهو فى العشرين من عمره أن يعد نفسه لكى يصبح موبذا أى كاهناً لمعبد النار . وهو لكى يصل إلى هذا المنصب عليه أن يحفظ قسماً طويلا من كتاب الأبستاق وهو المعروف باسم « ياسنا » عن ظهر قلب وإن لم يفهمه . وأعلى مرتبة فى السلك

الكهنوتى هى مرتبة الدستور أى الكاهن الأعلى .

وتحتاج الحياة الدينية عند طائفة المجوس إلى شيئين : معبد نار للأحياء وبرج صمت للأموات .

وأقدس معابد النار فى الهند هى المعروفة باسم « آتش بهرام » وهناك ثمانية معابد من هذا النوع . ومعبد النار فى حد ذاته بناء بسيط لا يمتاز عن غيره من المعابد الهندية ، غير أن تكاليف إقامة النار فيه باهظة لأن نيران هذه المعابد مؤلفة من ست عشرة شعلة ، كما أن رسامة هذه النار تحتاج إلى طقوس معقدة غاية التعقيد .

وتلى هذه المعابد فى المرتبة المعابد التى تطلق عليها اسم « آتش أدران » ونيرانها مؤلفة من أربع شعل . أما النوع الثالث فهى المعابد المعروفة باسم « آتش دادكاه » وهى بيت عادى للنار .

ويتردد أهل التقى والورع من المجوس على هذه المعابد ويتلون صلاتهم أمام النيران المتأججة ، ولكنهم لا يعبدونها كما يتوهم البعض ، فالنار ليست موضوع عبادتهم ولكنها رمز دينهم لا غير .

وأموات المجوس فى حاجة إلى ما يعرف باسم « برج الصمت » لأن دفن الأموات عندهم أو إحراق جثثهم يدنس

الأرض أو عنصر النار المقدس، لذلك يضعون جثث موتاهم فوق برج مستدير الشكل فتنقَض عليها جوارح الطير فتنهشها نهشاً ولا تتركها إلا عظاماً مجردة من اللحم . وبعد أيام يعود اللاحدون إلى البرج ويحملون هذه العظام ويلقونها فى البئر الكبيرة إذ تكون عند ذلك قد فقدت قوتها على التدنيس أو التنجيس .

وتبدأ الحياة الدينية عند المجوسى — ذكراً كان أم أنثى — فيما بين السابعة والخامسة عشرة . إذ يقام لهذه المناسبة حفل دينى يلبس فيه الصبى أو الفتاة القميص والزنار بعد أن يتلو وراء الكاهن بعض الأدعية والصلوات بلغة لا يفهمها معظم الذين يتلونها .

ولا يستطيع أحد أن يتكهن بمستقبل طائفة المجوس على وجه التحقيق، غير أنه لا توجد فى الهند طائفة أخرى أكثر تقدماً من المجوس ولا أكثر منهم استفادة من الثقافة الغربية . والمرأة المجوسية متعلمة وتتمتع بمثل ما تتمتع به المرأة الأوربية من حرية . وطائفة المجوس واسعة الثراء وبعض أفرادها من أغنى تجار الهند وأعظم أمرائها . وجمعيات البر والإحسان المجوسية فى الهند أشهر من أن تذكر بل إن لها شهرة عالمية .

ويرجع الفضل فى حركة الإصلاح الاجتماعى فى الهند

إلى طائفة المجوس . غير أن أفراد هذه الطائفة غير راضين اليوم عن الحالة التى وصل إليها الدين الزرادشتى . فالمثقفون منهم لا يحترمون الكهنة لجهل هؤلاء بأصول الدين ، وهم فى الوقت ذاته غير راضين عن تلاوة صلواتهم بلغة لا يعرفها اليوم إلا القليلون . وقد فقد المحافظون من رجال الدين المجوسى حماستهم الدينية القديمة وهم يرفضون قبول أى معتنق جديد لهذا الدين . ولسنا ندرى كيف يستطيع المجوس الاحتفاظ بمركزهم الحالى لأن معدل النسل عندهم آخذ فى الهبوط لاستخدامهم الوسائل الحديثة لتحديد النسل .

وقد حدث أخيراً أن تزوج فرد من أسرة تاتا المجوسية الشهيرة من سيدة فرنسية ، ورغبت هذه السيدة اعتناق دين زوجها غير أن رجال الدين المحافظين رفضوا قبول طلبها . فرفعت هذه السيدة دعوى أمام المحاكم الهندية غير أن هذه المحاكم لم تبت برأى قاطع فى هذه المسألة . فقد خشى رجال الدين أنهم إذا سمحوا للأجانب باعتناق هذا الدين فلا يلبث أن يهرع فقراء الهندوس إلى اعتناق المجوسية حتى يكون لهم نصيب فى خيرات جمعيات البر والإحسان التى يستمتع بها فقراء المجوس .

أثر الزرادشتية فى الدين اليهودى

لقد تأثر اليهود وهم الذين عرف عنهم ابتعادهم عن كل ما ليس من صميم العقائد الموسوية الصحيحة بالمعتقدات التى جاء بها زرادشت . فالباحث المحقق فى الكتاب المقدس (العهد القديم) المتتبع لتسلسل الحوادث التاريخية التى تضمنتها أسفاره وإصحاحاته يتبين له بوضوح كيف استعار اليهود فكرة الشيطان عن الديانة الزرادشتية .

لقد سُبى اليهود فى بابل عام ٥٨٦ قبل الميلاد أى قبل وفاة زرادشت بثلاث سنوات . ولا نجد فى دينهم قبل السبى أية فكرة تمثل الشيطان . ثم قام الملك كورش المجوسى بعد ذلك بخمسين سنة بغزو بابل وفك أسر اليهود وإعادتهم إلى بلادهم ، وظلوا طوال قرنين من الزمان يحكمهم ملوك على الدين الزرادشتى إلى أن جاء الإسكندر المقدونى .

وقد ظهرت فى الديانة اليهودية فكرة الشيطان بعد السبى . ولما كان الدين الزرادشتى فى ذلك الوقت يقول بوجود كبير بين خلائق الشر يعرف باسم « الخصم » فإنا نجد أن اليهود بعد السبى يطلقون على روح الشر عندهم اسم « الشيطان » ومعناه فى العبرية الخصم . وعلى هذا فليس أمامنا إلا استنتاج

واحد وهو أن اليهود قد نقلوا هذه الفكرة عن الدين الزرادشتى .

وهذا بَيِّن أيضاً فى الكتاب المقدس ، إذ نجد فى سفر صمويل الثانى بالإصحاح الرابع والعشرين الذى كتب قبل السبى أن يهوڤا أرسل داود ليحصى الشعب ، ثم أنزل بعد ذلك العقاب بالشعب لهذه الجريرة التى اقترفها داود بأن قتل سبعين ألفا منهم بالطاعون .

وفى سفر الأخبار الأول ، الإصحاح الحادى والعشرين ، رواية متأخرة لهذا الأمر ذاته كتبت بعد السبى ، وهى أن الشيطان هو الذى وسوس إلى داود بإحصاء الشعب .

ولقد كان اليهود قبل ذلك يدركون أن هناك تناقضاً فى تلك الرواية أى فى أن يكون يهوڤاه (إله اليهود) هو الباعث على هذا الشر وهو فى الوقت نفسه الذى يعاقب على اقترافه . لذلك رحب اليهود بفكرة الثنائية التى جاءت بها الديانة الزرادشتية فبرأت يهوڤاه من هذا التناقض المحيّر للعقول السليمة .

أثر الزرادشتية فى الدين المسيحى

إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس (العهد الجديد) نجد فى بداية إنجيل متى (الإصحاح الثانى) قصة قديمة محببة إلى قلوب

المسيحيين أجمعين يروى زيارة مجوس من الشرق لمهد الطفل عيسى « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود، فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له »

ولقد هلل المسيحيون الأول لهذه الرواية ذاكرين أن كهنة هذا الدين الزرادشتى قد وضعوا بين أقدام هذا الطفل المسيح هدايا ثمينة من الذهب واللبان والمر. ولعل ذلك كان تعبيراً صادقاً لما يؤملونه فى هذا الطفل بصفته أنه المنقذ للعالم الذى ينتظرونه منذ أمد طويل.

غير أن المسيحية قد أخذت من أتباع الديانة الزرادشتية أشياء أخرى أثمن وأغلى من الذهب والعطور.

لقد تفوه المسيح بعبارة وهو على الصليب مضمونها أنه يتوقع أن يكون مصيره الجنة. والجنة عند المجوس هى مأوى الصالحين بعد الموت. وهى كلمة فارسية. أما الكلمة العبرية التى تدل على مأوى الصالحين والأشرار على السواء بعد الموت فهى شيول. ومن الخطأ أن نقول إن المكان الذى كان يعيش فيه آدم وحواء قبل الخطيئة هو الجنة ولكنه كان فردوساً من الفراديس. ولم يكن اليهود يستعملون لفظة الجنة بمعنى أنها مأوى الأبرار الصالحين دون غيرهم إلا بعد أن استعاروها بمعناها

الذى تعرف به الآن من الديانة الزرادشتية .

وقد دخل المسيحية أيضاً كثير من الآراء والمعتقدات الأخرى الخاصة بالديانة الزرادشتية عن طريق اليهود مثل البعث وقهر الشيطان آخر الأمر والاعتقاد فى يوم الحساب وفيه يفصل بين الأعمال الطيب منها والخبيث ، والاعتقاد فى الأرواح الشريرة وفى الملائكة الحافظين من كل شر ، ولم يكن فى الدين اليهودى شىء من هذه المعتقدات قبل السبى بل وجدت كلها بعد ذلك وانتقلت عن طريق اليهود إلى الدين المسيحى .

وكان لزيارة زرادشت للسموات — أو بوجه أصح للرؤى التى خُيل له فيها أنه صعد إلى السماء فى صحبة كبير الملائكة — صداها فى الآداب العالمية مثل الكوميديا الإلهية لدانتى ، والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزى ملتون ، ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى وغير ذلك .

ولعل أجمل ما نختم به هذا الفصل أن نذكر نشيداً من الأناشيد التى نظمها زرادشت نفسه وضمنها « الكاثا » أقدم أجزاء الأبستاق :

« بالحق تحرك قلبى
وبالنية الطيبة تلهم عقلى

وبعظمة القوى الروحية الكامنة فى قرارة نفسى
أسجد تمجيداً لك يا إلهى ، وعلى شفتى إلى الأبد تسبيحات حمدك ؛ بل وعندما أقف ببابك آخر الأمر أسألك الرحمة والغفران سوف أسمع بوضوح الصدى العذب لصلواتى ، منبعثاً من جنتك موطن الأناشيد »

obeikandl.com